

هندسة الفضاء الروائي

الأستاذة: غنية محمدي

جامعة الجزائر 2

الفضاء الروائي هاجس نقدي مهم في الأبحاث الجديدة التي أنجزت في السنوات الأخيرة. ويأتي الاهتمام به مرافقا للتحويلات الأدبية التي شهدتها جنس الرواية على وجه الخصوص، فقد عرف الروائي المعاصر حالة من الإحساس العميق بالانتماء إلى المكان ... حالة شبيهة بانتماء الابن إلى الأم.

لعل ذلك ما جعل الروائي المعاصر يبحث عن الأدوات الجمالية التي تتيح له التعبير بشكل جاد وممتع ، إلى درجة أنه صار شغوفاً بالتجريب على مستوى اللغة وعلى مستوى التعبير والتقنيات وعلى مستوى الدلالة كذلك ، وقد وجد في هندسة الفضاء الروائي ، مسوغاً تركيبياً ودلالياً يتكئ عليه ، لتمرير ما يشاء من الأفكار والقيم .

إن مفهوم الفضاء الروائي بهذا الشكل واسع وإشكالي ، وحسب هنري ميتران فإنه رغم أنه مكون فني محوري في جنس الرواية ، إلا أنه .. لم تعالجه إلى الآن إلا دراسات قليلة جداً ، حاولت البحث فيه لتشخيص معالمة في الأدب، " ...لست أقصد بكلامي فضاء النص الذي يشرع منهجياً، في دراسة معالمة من خلال تعليقات أضحى مألوفة، تناوُل عنوان الكتاب وغلافه، والمستهلات، وبدايات الفصول ونهايتها والتنويعات الطباعية والفهارس ...إلخ، وإنما قصدت الفضاء من حيث هو تخیل، والفضاء من حيث هو مضمون ومعطيات طوبوغرافية حول الحدث المتخيل والمروي". (1)

في هذا السياق فقد شكلت دراسة الفضاء في الرواية العربية الحديثة بعداً آخر من أبعاد البحث في ماهية الرواية ونقدها، وأبرز خصوصياتها الجمالية من

حيث تناول الفضاء وكيفية بنائه باعتباره مكونا أساسيا من مكونات السرد، يبنى أساسا ككل فضاء فني على تجربة جمالية (2) وهو ما يسميه غاستون باشلار بشعرية الفضاء. (3)

إن الفضاء أشمل من معنى المكان لأن مجموع الأمكنة هو ما يبدو منطقيا أن نطلق عليه اسم فضاء الرواية كما يقول الباحث حميد لحمداني (4)، حيث سَلَطَ في نقده الضوء على الفضاء كمتخيل ذي طاقات سردية للحكي ، تحرك النص وتدفع إلى تطوره، وتزعم عنه تلك الخلفية الزهيدة لمعنى الديكور وتنبه إلى ضرورة الاشتغال على النص بالوقوف على دلالاته المختلفة من خلال الكشف في الفضاء الدلالي وتأثيره على الشخصيات والأحداث.

يعتبر الفضاء الروائي عنصرا أساسيا من عناصر السرد الروائي، حيث يتحكم فيه الروائي ويسيطر عليه من حيث البناء والتشكيل والدلالة ، ويقتضي تحديد مفهومه الدقة والوضوح ، وعموما يتشكل هذا الفضاء الروائي من عنصرين هما:

- الفضاء النصي،

- و الفضاء المكاني أو الجغرافي

ولتقريب وجهة النظر هذه ، يمكن التمثيل برواية "ذاكرة الجسد" للروائية أحلام مستغانمي الجزائرية الأصل التي أثارتني محتوياتها (5) ، اذ كانت مدينة قسنطينة المكان الفسيفسائي الذي صنعت منه أحلام مستغانمي قطب الدلالة العميقة لخطاب ذاكرة الجسد التي بني عبر فضائها الفسيح الزمن السردية ، وتحركت الأحداث الحيوية ، وكانت قسنطينة النموذج الدلالي المثير للجدل داخل الرواية، ومنه انبثقت الكثير من الدلالات الحية المعبرة عن حس حضاري ووجدان تاريخي مفعم بالمعاني الإنسانية ..

وإذا كان الفضاء هو كل شيء في السرد ، على رأي "غاستون باشلار" ، فان ذلك يمثل سببا مقنعا وكافيا للقول بان فكرة الفضاء في ذاكرة الجسد - بوصفها رواية مشحونة بدلالات مكانية متعددة اثار الكثير من الجدل النقدي- تمثل سابقة

دلالية وانموذجا مقنعا لاعتماده ورقة تطبيقية في هذا الموضوع من قبل الدارسين الذين يراهنون على شرح فكرة الفضاء السردي . وعلى اعتبار أن الخطاب الروائي هو الميدان الخصب، لصياغة أشكال الخطاب ، وما ينتج عن ذلك من برمجة للفضاء، وتكوينه ، وتبلوُّره خير دليل على أن بنية الخطاب لا تنفصل عن بنية الفضاء.

ورد في رواية ذاكرة الجسد هذا النص :
"إنه ما يحدث لي منذ وطئت قدماي هذه المدينة ، وحدي أعاملها كمدينة فوق العادة .

أعامل كل حجر فيها بعشق ، أسلم على جسورها جسرا جسرا، أسأل عن أخبار أهلها، عن أوليائها، وعن رجالها واحدا، واحدا،
أتأملها وهي تمشي ، أتأملها وهي تصلي، ، ، وتمارس جنونها، ولا أحد يفهم جنوني ، وسر تعلقي بمدينة يحلم الجميع بالهرب منها". هل أعتب عليهم ؟ (6) .

كانت كثرة ترددات لفظ "قسنطينة" دالة على بعدها الوظيفي، داخل التشكيل الدلالي للفضاء الروائي حيث التقطت كل شذرة من شذرات قسنطينة ، وحولتها إلى رموز دالة . وقد استخدمتها لتشكيل فضاءها، ومزجت سرديا بين عدة معالم وتفاصيل مكانية ، وحملتها دلاليا بكثير من المعاني المعبرة عن حالات إنسانية.

لقد شكلت أحلام مستغانمي في الفضاء كتابة ومعمارا ، كما شكله بطل روايتها خالد عالما من الحكيم أو سحر الحكيم بكائناته وأشياءه، وأفعاله وأسمائه، وأنساقه المختلفة. ليتأكد رأي حسن نجعي في هذا المضمير من أن الفضاء سند أساسي للعمل السردي، بل وهوية من هويات النص لا يمكن اختزالها. ومن ثم فإن "الفضاء حسبه لم يكن ابدا فارغا ، بل تكون له دلالة علاللدوام" (7)

لقد سبق لغالب هلسا الروائي العربي المعروف ان قسّم الأمكنة في الرواية إلى أنواع ثلاثة ، بحسب ما نقله الينا الناقد إبراهيم خليل (8) و هي:

1- المكان المجازي: هو أقرب منه إلى الافتراض منه إلى الحقيقة وهو مجرد فضاء

تدور فيه الأحداث، مثل خشية المسرح.

2- المكان الهندسي: يظهر في الرواية من خلال وصف المؤلف للأمكنة التي تجري فيها الحكاية.

3- المكان المعيشي: هو الذي يستطيع أن يثير لدى القارئ ذاكرة مكانه هو، فهو مكان عاش الروائي فيه ثم انتقل ليعيش فيه بخياله بعد أن ابتعد عنه. إن المكان هو الذي يشكل الفضاء الروائي، وهذا أمر اتفقت عليه الدراسات الحديثة، إذ اعتبر إبراهيم خليل "الفضاء الروائي عنصرا متحكما في الوظيفة الحكائية والرمزية للسرد" (9).

ومثلما يعد الفضاء الروائي مكونا أساسيا للنص الروائي، فإنه في الوقت نفسه يمثل بنية حاملة لطاقات دلالية رمزية وإيديولوجية تشحن مكونات الفضاء بحمولة إيديولوجية تجعله ينتقل من المستوى الواقعي إلى مستوى تثنين أفكار ورؤى تنعكس على المنظومة الفكرية والمعرفية التي يحملها المتلقي، والتي تكون على شاكلة قيم وأحكام. وكما يقول حميد لحميداني فإن الفضاء " هو معادل لمفهوم المكان في الرواية، ولا يقصد به المكان الذي تشغله الأحرف الطباعية التي فيها الرواية و لكن ذلك المكان الذي تصوره قصتها المتخيلة" (10).

و الواقع أن تجربة أحلام مستغانمي الروائية، تجسد سؤال الفضاء بامتياز، و تفتح باب التأمل و ابتكار المعنى بوعي كاتبة لم تمكث في الجزائر طويلا، و كتبت من الغربة (فرنسا) روايتها وكأنها داخل الوطن.

و لعل كتابتها بلورت وعيا آخر بأهمية و دور ووظيفة الكاتب في رؤية الوضع الجزائري، و تعميق الإحساس بالجزائر كفضاء تاريخي و إنساني و حضاري مازال يثير الرهبة و الجمال .

في الفضاء الروائي تكون العين ساردة للمشاهد، العين التي تجوب الأجساد و الموضوعات و الأشياء و الأصوات و الروائح و العلامات، للامساك بالمرئيات و حتى الذهاب باللامرئي لإدراك الأحاسيس اللانهائية و المبهجة كما قال حسن نجمي " إن الأشياء هنا، كي لا تتلاشى تتخذ في الكتابة بعدها الفضائي " (11)

وغير بعيد عن هذا المفهوم النقدي ، فقد تطرقت تطرقت سيزا قاسم، التي تعد من أوائل الباحثين في هذا المجال لمفهوم الفضاء واصفة إياه بالقول "...تشبيد لغوي متخيل، يتحقق في لحظة القراءة، يستند الكاتب في تشكيله إلى مرجع واقعي أو ذهني ليؤسسه بوسائله الخاصة، الذي يؤثت لنا و بأنواعه فراغا تتحرك فيه و تنتقل شخصيات الرواية و تملؤه أشياءها العاكسة لسماتها ... هذا أولا و كذلك في تنظيم معنى للسواء على البياض في الرواية ، والذي يعكس رؤية فضائية تسم المؤلف ..." (12)

لقد طرح جيرار جينيت موقفه النقدي من جنس الرواية بوصفها خطابا سرديا بقوله : "نعلم ان الرواية ليست سردا فقط . وبالتالي لا يوجد صنف واحد للسرد بل لا يوجد حتى صنف للسرد .." (13) موقف يضعنا امام إشكالية علاقة الأدب بالفضاء بشكل يعمق اسئلتنا النقدية في تعاملنا بصفتنا قراء مع الخطاب السردى وطبيعة الفضاء الذي يحوره .، زمنا ومكانيا . . بحيث يحدد طبيعته كونه ليس مجرد مادة لغوية انما هو عمل ادبي له خصوصيته وفضاءه الدلالي.

و من ثم فإنه يتعين علينا أن نبحث بهذا الشكل عن "خاصيات الصيغة السردية" "التي يمثل المكان احد عناصرها الأساسية على الاطلاق. مما يسمح لنا حسب جيرار جينيت ان نُبَوِّب الرواية تحت تخصص معين من الصيغة السردية (14)

ان غرض الكاتب في أي رواية هو ان يوصل فكرة : هي ضرورة وجود الإنسان و حضوره ، بحيث يكون للمكان دلالة تفوق كونه مجرد حيز نصي الى كونه حيزا متخيلا له مرجعيته الواقعية (15) اذ يتحقق بوجوده قدر كبير من الإحساس بالذات لدى الكاتب المبدع ولدى القارئ من زاوية ثانية .

تختلف الأماكن في الرواية و تختلف دلالتها حسب الأحداث التي جرت فيها و الشخصيات التي تحركت بداخلها، وهذا ما يعتمد إليه الكتّاب ، فأحيانا تكون هذه الأماكن فضاءات مفتوحة تقوم فيها الحركة و كثرة الأحداث و التنقل، فيتعايش معها القارئ و يفتح قلبه لها و يتشوق لرؤيتها و التدخل في أحداثها.

وربما تكون فضاءات ايجابية تحمل الأشياء المفتوحة فتكون أماكن للحلم والخير والتقاء الشخصيات الخيرة . وهناك من الأماكن ما ترد عكس ذلك فتكون فضاءات مغلقة.

وقد اهتمت الكثير من الدراسات الحديثة بفكرة الفضاء وابعاده ومفرداته حتى اعتبر تادي في خطوة معرفية مهمة الى الإقرار بان " كل نص فضاء " . (16)
ان للمكان أهمية كبيرة في البناء الروائي - دون شك - لأنه لم يعد تلك البقعة التي تتحرك فيها الشخصيات السردية فقط ، وإنما أصبح مكونا مستثمرا في الرواية استثمارا كبيرا .

و بالضرورة تقفز إلى أذهاننا علاقة الفضاء بالزمن لأن الزمن عنصر هام يرتبط بالمكان ، وبالتالي هناك علاقة بينهما لا بد أن تتوفر، فلا وجود للمكان دون الزمن، فهو الذي يساعد على صيرورة الأحداث ، فالقارئ لا بد أن يميز زمن هذه الأحداث لأن العلاقة بينهما وجودية ، إذ نستطيع أن نعيش خارج الزمن وبدون قيم، ولكننا لا نستطيع أن نعيش خارج المكان لأنه شيء مهمين .

و كل حدث لا بد أن يبدأ من نقطة زمنية معينة وفي كل مكان معين أيضا لذلك كما يقول حسن البجراوي "فكل نقطة تقتضي انطلاقا في الزمن و نقطة ادماج في المكان أو على الأقل أن تعلن عن أصلها الزماني والمكاني معا" (17) .

وفي كثير من الأحيان نجد بعض الدارسين يطلقون عليها تسمية الزمكانية، و هذه الأخيرة تدل على ارتباط هذين العنصرين ، فالسارد في روايته لا بد عليه أن يسخر الزمن لخدمة المكان.

فالروائي لا يمكنه الاستغناء عن أي أحد منهما و الأماكن من الضروري أن تحدد بكثرة في الرواية مقابل الزمن الذي يفهم القارئ ويطلعه على زمن الرواية من خلال ماضيها وحاضرها ومستقبلها، بالإضافة إلى أن " علاقة الزمن بالمكان هي علاقة المتغير بالثابت، وهي أيضا علاقة المتغير بعناصر البناء الروائي الأخرى" كما يقول احمد النعيمي (18)

من جانب آخر فإن الفضاء متصل بالشخصيات و ما تحمله من أبعاد ثقافية و نفسية وفكرية ورموز، أي علامات دلالية تمنح الفضاء اتساعه وقوته و قيمته.

و بفضل حركية هذه الشخصيات داخل الحكي تتجلى أبعاد المكان و يتشكل الفضاء على نحو فسيقي معبرا عن رؤيا عميقة لدى الكاتب.

و بهذا التكفل فإن قراءة الفضاء جاءت ملازمة الحضور البشري، ليتوزع في شخصيات و أسماء عديدة و متنوعة أدت فيه عدة وظائف قد تكون منها السارد..

فالفضاء الروائي يمكنه أن يكشف لنا عن الحياة اللاشعورية التي تعيشها الشخصية" كما يقول حسن البحراوي (19). ومن ثم فإن التفاعل بين الأمكنة و الشخصيات شيء دائم و مستمر في الرواية، مثلما هو دائم و مستمر في الحياة.

لقد أكد غاستون باشلار على ضرورة ابراز العلاقة بين المكان و الشخصية، إذ يقول " يجب أن نقف عند صورة المكان بكل جزئياته لأنه ظاهرة لها وجودها المستقل و تبيان العلاقة بين المكان كظاهرة و الذات من خلال الوقوف على الصور الفنية المكانية و وصفها "(20)

فمثلا البيت الذي تسكنه شخصية ما ، يعبر عن حالة معيشتها الاجتماعية ، وهذا من خلال أغراضه و أثاثه كما يقول آلان غريتي: " كل حائط، و كل قطعة أثاث في الدار كانت بديلا للشخصية التي تسكن هذه الدار غنية أو فقيرة قاسية أو عظيمة"(21)

هذا يعني أن المكان لا يصف حالتها المادية فقط ، بل حالتها المعنوية أيضا، لأن الأشياء تعكس خبايا صاحبها.

إن المكان لا يكتسب أهميته إلا بحضور الشخصية و تواجده فيه، و أيا كان نوع المكان فلا بد أن يتأثر بها و يؤثر فيها ، فنحن لا نعرف دلالاته الروائية كما يرى الناقد حسن البحراوي ، إلا بمعرفة بصمات الشخصية فيه ، و ظهورها هناك، انها " تساعد على تشكيل البناء المكاني في النص، و المكان لا يشكل إلا باختراق الأبطال له " (22).

كما أنه يلعب دورا في تحريك الشخصيات، إذ بقدر ما يكون المكان محببا لديها، فإن ذلك يساعدها على القيام بكثير من الانجازات الايجابية .

وعليه فإن الأشخاص الذين يعيشون في مكان معين ليس لهم أن يتحدثوا بغيره" حيث كان البدء و المنتهى و الملجأ الذي يحتمي فيه أشخاص العمل الروائي بوصفه واقعه المعيش "على حد تعبير حسن البحراوي (23). لا شك أن كل قارئ لرواية ما يعجز عن فهم بعض الشخصيات، ولا يتمكن من ذلك إلا بفهمه للأمكنة و طبيعتها، وهنا ستكون الشخصيات خاضعة لها، فالأماكن في هذه الحالة سيوكل إليها مساعدتنا على فهم الشخصية. ان تكوين المكان و ما يعتريه من تغير في بعض الأحيان يؤثر تأثيرا كبيرا في تكوين الشخصية و قد يكون وصف الأمكنة من الدوافع التي تجعلنا نفهم الأسرار العميقة للشخصية الروائية.

في خضم هذه التصورات فإن هناك من يقرب ضرورة التطابق بين الشخصية و الفضاء، و يجعل من المكان على حد قول حسن البحراوي "تعبيرات مجازية عن الشخصية، فإذا وصفت فقد وصفت الإنسان"(24)

بهذا الشكل المعرفي نخلص الى للفضاء معاني لا تنفك تنفصل عن طبيعة الخطاب الروائي، بل، وتساهم في صياغته، وكما كان الفضاء محوريا في متن النص كلما كان ذلك سببا لتجانس الرواية في بنائها ومسارها وكيانها وهندستها.

هوامش الدراسة :

- 1 - جماليات المكان . غاستون باشلار . ترجمة غالب هلسا . المؤسسة الجامعية للدراسات . بيروت . تراجع ص: 35. ط5 - 2008
- 2 - يراجع في هذا الشأن : حسن نجعي : شعرية الفضاء ، المتخيل والهوية في الرواية العربية . المركز الثقافي العربي بيروت الدار البيضاء . ط1 - 2000 . ص : 47 - ينظر كذلك : الخطاب الروائي . ميخائيل باختين - ترجمة محمد برادة . يرى في هذا الصدد ان " الرواية لها قرابة جد وثيقة مع الاشكال البلاغية " . ص 43 - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ط 1 - 1987 القاهرة .
- 3 - انظر : جماليات المكان (مرجع سابق) انظر : ص: 35
- 4 - بنية النص السردى من منظور النقد الادبي : حميد لحميداني - المركز الثقافي العربي - لبنان - المغرب - ط2 - 1993 - انظر ص 65
- 5 - رواية ذاكرة الجسد - أحلام مستغانمي - منشورات أحلام مستغانمي ط20 - بيروت لبنان 2004
- 6 - المصدر نفسه : ص : 363

- 7- حسن نجعي : شعرية الفضاء . ص : 47، ص : 60
- 8- إبراهيم خليل : من الاحتمال الى الضرورة . دراسات في السرد الروائي والقصصي . دارمجلدلاوي . ط 1 . 2008
- ص : 20
- 9- حسن البحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية) المركز الثقافي العربي لبنان المغرب ط1
1990- ص 33
- 10- يراجع حميد لخميداني . بنية النص السردى في منظور النقد الادبي . المركز الثقافي العربي . لبنان . المغرب .
ط2 - 1993 ص : 65 وما بعدها .
- 11- حسن نجعي : شعرية الفضاء - ص : 45 - ص 111
- 12 - سيزا قاسم : بناء الرواية . دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ . - الهيئة المصرية العامة - القاهرة - ط1
- 1984 - ص 75 - 76
- 13- جيرار جينيت . مدخل لجامع النص ترجمة : عبدالرحمن أيوب . انظر ص 80 ، دارتوبقال للنشر ط2 - 1986
- 14 - المرجع نفسه : ص : 84
- 15 - يراجع : عبد الحميد بورايو . منطق السرد . دراسات في القصة الجزائرية الحديثة . ديوان المطبوعات
الجامعية - 1994
- 16- يراجع حسن نجعي : شعرية الفضاء السردى .. ص 46 يراجع كذلك :
- Jean yves tadie ;le recit poétique(France :edition gallimard :1997 p47
- 17 - حسن البحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية) ص 29
- 18 - احمد النعيمي : إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة . المؤسسة العربية للدراسات بروت ط 1 - 2004
ص 45
- 19- حسن البحراوي : بنية الشكل الروائي . ص : 44
- 20- غاستون باشلار . جماليات المكان . ترجمة غالب هلسا . ص : 7
- 21 - انظر : حسن البحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية) . ص : 44
- 22 - المرجع نفسه : ص : 92
- 23 - احمد عودن : ابعاد المكان الفنية في عصفير النيل لابراهيم اصلان . دار الطباعة لدنيا الطباعة والنشر -
الإسكندرية مصر ط : 2004
- 24- حسن البحراوي : بنية الشكل الروائي : ص : 32